الحديث الشريف :

كان الله ولم يكن شئ غيره

دكتور/عبد الرحمن محمد المراكبي

مدرس العقيدة والفلسفة

فى كتاب « بدء الخلق » عند البخارى(١) :

عن عمران بن حصين رضى الله تعالى عنهما قال :

« دخلت على النبى ﷺ وعقلت ناقتى بالباب . فأتاه ناس من بنى تميم .

فقال : اقبلوا البشرى يابنى تميم .

قالوا : بشرتنا فأعطنا (مرتين) .

ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن .

فقال : اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنوا تميم .

قالوا : قد قبلنا يارسول الله .

قالوا : جئنا نسألك عن هذا الأمر(٢)

وفى رواية : (جئناك لنتفقه فى الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان)(٣) ؟

قال : كان الله . ولم يكن شىء غيره . وفى رواية :(ولم يكن شىء قبله)(٤)

---

(١) أنظر فتح البارى شرح صحيح البخارى :٢٨٦/٦ ط بيروت .

(٢) أى عن حكمه وشأنه كيف كان .

(٣) كتاب التوحيد : انظر فتح البارى :٤٠٣/١٣

(٤) كتاب التوحيد : انظر فتح البارى : ٤٠٣/١٣

وفى رواية غير البخارى (ولم يكن شىء معه)(١) . وفى رواية أبى معاويه (كان الله قبل كل شىء) . وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السماوات والأرض . فنادى مناد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين . فانطلقت فإذا هى يقطع دونها السراب . فوالله لوددت أنى كنت تركتها » .

وفى رواية التوحيد : (وأيم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم(٣)) .

* * *

والحديث الشريف يوضح لنا معالم الحق فى أمور ثلاثة ضلت فيها أفهام كثير من الخلق :

أولا : وجود الحق سبحانه كحقيقة ثابتة ، وقوة مهيمنة ، ذى قدرة خالقة مبدعة ، وإرادة نافذة مخصصة ، وعلم شامل محيط .

ثانيا : أن العالم - وهو كل ماسوى الله تعالى - حادث مسبوق بعدمه . وأنه لاقديم إلا الله تعالى : وهو ما يدل عليه صراحة قوله صلوات الله وسلامه عليه «كان الله ولم يكن شىء غيره) .

ثالثا : تسلسل الخلق فى الوجود ، والإشارة إلى أول مخلوق فى هذا الوجود .

وكل من هذه القضايا الثلاث قد حظيت باهتمام المفكرين والعلماء ، ودارت حولها كثير من المعارك الفكرية والعلمية .

* * *

---

(١) فتح البارى ٦ : ٢٨٩ (٢) فتح البارى ١٣ : ٤١٠

(٣) وفيها يتبين لنا كيف كان حرص الصحابة على ملازمة رسول الله ﷺ والتفقه فى الدين .

١ — قضية الألوهية

أما قضية الألوهية ، فمنذ أن كانت موضوعاً للبحث الفكرى والفلسفى تعتبر من أهم وأبرز المباحث التى لعبت دوراً هاماً وبارزاً فى محيط التفكير الفلسفى والميتافيزيقى ، بل وفى محيط البحث العلمى كذلك . وما تزال ، وستظل تشغل اهتمام كثير من المفكرين والعلماء فى كل يوم ، وفى كل مكان .

ولقد أثرت هذه القضية بوفره الآراء ، وتضارب الأنظار والأفكار فيها ؛ نظراً لما يدور حولها من تشويه ، أو تشبيه . ومن إنكار أو جحود

ولقد ظلت طغمة من الناس يجحدون وجود الله قديما وحديثا . بل ويرمون المؤمنين به بأفن العقل ، وضحالة الفكر . لأنهم يؤمنون — فى زعمهم — بإله لا نراه ، وبمعبود لا نشاهده .

ولقد طغت هذه النزعات الإلحادية الزائفة طغيانا كبيرا فى عالم اليوم وهى تنادى بالاكتفاء الذاتى للإنسان ، والتفسير المادى للوجود والكون وكأنه ليس ثمة شيء وراء هذا العالم ، وليس ثمة منهج الاستدلال وراء منهج التجربة البشرية فكل مالا يتناوله الحس بجوهره — عندهم — ففرض وجوده محال .

وعلى ذلك : فالله فى نظرهم خرافة ، والدين وهم وخداع .

ونحن معهم فى أنه لا يمكن لنا أن نرى الله بأعيننا — وحاشا لله أن تدركه الأبصار — ولا يمكن لنا أن ندركه بحواسنا . وإلا لكان مادة يحويها المكان والزمان . ونحن معهم كذلك فى أنه لا يمكن لنا أن نبرهن على وجود الله كما لو كان شيئا ماديا ؛ لأن الله ليس موضوعاً من موضوعات التجربة نضعه فى مختبراتنا ونجرى عليه تجاربنا .

ولهذا كان لهم شيء من العذر عندما قالوا : إنهم لم يروا الله .

ولكنه لا عذر لهم مطلقا عندما قالوا : إنه لا إله .

ولست أدرى بأى منطق، وبأى علم ينكر هؤلاء دعوى وجود الله؟!

فهل كشف العلم لهؤلاء عن كل ما فى هذا الوجود، فضلا عما وراء هذا الوجود؟!

وهل كل مالم يصل إليه علم الإنسان اليوم يعتبر غير موجود؟

إن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، ومازال يكتشف كل يوم جديداً، بل وما تزال وسائل البحث العلمى وأدواته قاصرة وعاجزة عن أن تصل بالإنسان إلى معرفة كل شيء وإلى الغوص وراء كل حقيقة، ومازال الإنسان يطور وسائل بحثه، ويعاود بحث ما لم يستطع معرفته، ودرك مالم يستطع إدراكه، وما زال يدأب فى بحثه، ويحث الخطى إلى العلم ويغذ السير إلى المعرفة عسى أن يصل إلى علم ماهو جاهل به. وهو يفترض سلفاً إمكان الوصول إليه.

إن مجاهيل الحياة اليوم أمام العلم أكثر من أن تحد، وأسرار الوجود أكثر من أن تحصر، وإن استكناه أسرار الحياة والوجود ليحتاج من البشرية إلى أضعاف ما عاشته البشرية مع البحث والعلم والدرس. وربما لم تصل منه إلا إلى القليل — بل هو ذلك — حتى يفجؤها الموت وتدركها القيامة.

ولهذا يأبى منطق العلم، ومنهج البحث أن ينكر الإنسان مالم يستطع — بوسائله العاجزة، وبعجزه الواضح — أن ينفذ إلى درك حقيقته، ومعرفة كنهه.

ولهذا أيضاً، كان من الجهل المشين، والتعصب المقيت، والتنكر لمنهج البحث العلمى مازعمه أدعياء العلم عندما قالوا : إنه لا إله، وسدوا بذلك

على أنفسهم منافذ الإدراك وأوصدوا أمام مدارِكهم الأبواب ، وأنكروا — لمجرد الإنكار — دون ماحجة لهم — وجود هذه الحقيقة الظاهرة الباهرة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)(١)

وصدق الله العظيم : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق)(٢)

إنهم يريدون إلهاً مادياً محسوساً .

والحقيقة أنهم يؤمنون بكثير مما ليس بمحسوس لمجرد أنهم ينتفعون بآثاره ويدركون منافعه ولكنهم لا يعلمون حقيقته، ولا يدركون كنهه. فلماذا ينكرون الله) ؟ والكون كله والوجود جميعاً أثر من آثاره ؟ !

إنهم يعيدون إلى الأذهان شبه الجاهلية الأولى من الدهريين والماديين عندما أرادوا رؤية هذا الإله (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا . لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيرا)(٣) .

(وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون)(٤)

لقد قال بنو إسرائيل لموسى : (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة)(٥)

---

(١) الروم : ٧ — (٢) الحج : ٩

(٣) الفرقان : ٢١ — (٤) البقرة : ١١٨

(٥) البقرة : ٥٥

ولقد أراهم الله من آياته ودلائل وجوده ، وشواهد قدرته مالا يمكن إنكاره : وقد تبعهم فرعون بجنوده بغياً وعدواً وهم يقولون فرقاً وخوفاً : (إنا لمدركون) . ويطمئنهم نبيهم (كلا إن معى ربى سيهدين) ويجعل الله لهم إلى النجاة طريقاً فيجعل لهم طريقاً فى البحر يبساً . وما إن جاوزوا أليم حتى وجدوا قوماً يعكفون على أصنام لهم فإذا هم يقولون لنبيهم (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين)(١)

لقد أرادوه حجراً يعبدونه ، أو عجلا يقدسونه لأنهم يريدون إلهاً مادياً محسوساً .

وهكذا ينحط الإنسان الذى كرمه الله وقد خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وسخر له مافى السماوات ومافى الأرض جميعاً منه ليقدس عجلا ويعبد حجراً ويتخذ إلهاً وثناً .

وهكذا تريد مادية اليوم أن تكون : وصدق الله العظيم (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) ولكن الدلائل لاتفيد إلا من يعقلها ويوقنها . (كذلك بينا الآيات لقوم يوقنون)(٢) .

إنها شبهة قديمة جاهلية يرددها المتعالمون اليوم وهم يزعمون التقدم والعلمانية ، ويرمون غيرهم من المؤمنين بالتخلف والرجعية .

إن الآيات البينة والشواهد الناطقة ، والدلائل الواضحة على وجود الله أكثر من أن تحصى ، وهى من الوضوح بحيث لا تخفى . فأدلة النظام ، والإبداع ، والعناية ، والخلق وغيرها مما أشبعها العلماء بحثاً ودرساً

---

(١) الأعراف : ١٤٠ (٢) البقرة : ١١٨

وغصت بها كتب الفلسفة والكلام هى أعظم من أن يتحملها بحث أو مقال .

إن المشكلة ليست فى قلة الأدلة على وجود الله ، أو عدم وضوحها وظهورها ولكنها تكمن فى هذا التحول الخاير بالمادة عن الروح ، وفى هذه الغفلة عن الله .

فى هذا البريق الخادع الذى أحدثه العلم المادى ، وظن أهله أنهم به ملكوا الدنيا ، واستغنوا به عن الله ، وفتن به الناس من حولهم فانشغلوا بالمادة عن الروح ، وبالدنيا عن الدين ، وأضحوا تروسا فى عجلة الحياة المادية ، حتى فقدوا وعيهم مع دوارها وحركتها الدائبة ، فعصفت بهم الشكوك ، واجتاحهم الإلحاد . حتى أعلنوا الحرب على الله ، وأعلنوا العداء لكل دين وخرجوا على الصالح من الأعراف والتقاليد ، وانطلقوا فى هذه الحياة يعربدون ، ويدمرون المبادىء والقيم ويأتون من الأفعال ما يعف عنه الشيطان ، وكأنهم بذلك قد فتحوا للناس فتحاً جديداً ، ووضعوا أيديهم على كشف علمى جديد .

والحق : أن تهافت هذه النزعات الإلحادية المتطرفة لا يخفى ، وما يتذرعون به من الأوهام والشكوك لا يثبت أمام النقد البناء ، والمنهج العلمى الصحيح . وحتى لو أنهم رأوا الله وجاءهم الله والملائكة قبيلا لن يؤمنوا ولن يذعنوا (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)(١) . ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين)(٢) (ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) .

---

(١) الحجر : ١٤ (٢) الأنعام : ٧

وهكذا كلما تحول الإنسان عن الله . أظلمت بصيرته ، وضل عقله وزاغ قلبه (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .

وصدق الله العظيم سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وأن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وأن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وأن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين)(١) .

ومهما كان من الحملات العنيفة ، والتخرصات الكاذبة ، وضروب الإنكار الصريحة إلا أن وراء تلك المزاعم العقلية العريضة يكمن دائما إيمان باطن ، أو شعور خفى بأن ثمة شيئا فيما وراء العالم الطبيعى المرئى... ومهما كان من أمر البراهين العقلية ، أو الاستدلالات المنطقية فإن هذا الإيمان قد يبقى بمنأى عن كل ارتياب وكأنما يستمد قوته من مصدر علوى هيهات أن تزعزعه الشكوك » « وإننا لو نفذنا إلى أعمق ظلمات الشعور الإنسانى لما وجدنا ملحدين بمعنى الكلمة ، « ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن الإنسان موجود متدين قبل أن يكون حيوانا مدنيا ، أو كائنا اجتماعيا »(٢) .

ولعل ذلك هو سر هذه الحملة الشرسة المسعورة التى يشنها هؤلاء على الله والدين . لأنهم يريدون أن يتخلصوا من هذا السلطان الذى يستولى على قلوبهم ، وكأنهم يحملون فى حناياهم الإقرار بهذا الدين والاعتراف بهذا الإله وإلا فكيف يحاربون ما لا وجود له فى نظرهم .

وهذه الحياة المادية وإن أضلت الناس عن الله ، وباعدت بينهم وبين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ومهما طالت غربة الناس عن ذواتهم ،

---

(١) الأعراف ١٤٦

(٢) مشكلة الإنسان : ١٨٥ د : زكريا إبراهيم .

وبعدهم عن أرواحهم فلا شك أن لهم حنيننا إليها . ولا يمكن لشىء ما أن يقضى على هذه الفطرة ، ولا أن يفقد الإنسان روحه . لأن الإنسان لا يمكن له أن يعيش بأحد جزئيه وقد خلقه الله جسداً وروحاً . بل هو روح بأعظم جزئيه فلئن طغت طينته يوما فلن تموت روحه أبداً .

وهذا هو سر عودة كثير من الناس إلى الدين فى هـــذه الأيام ، ولاسيما فى الدول التى أرادت القضاء على الدين ، وذلك بعد أن أقفرت قلوب الناس منه .

وقد يبدو غريبا أن يدخل الدين فى تفكير الناس فى هذا العصر ، وأن يذكر فى الزحام الذى يساق فيه الناس سوقا إلى مطالب وغايات كلها مادى ، وكلها خالص لحساب الجسد وليس للروح منه نصيب ! قد يثير هذا عجبا ولكن الذى يتجاوز بنظره هذا المستوى السطحى للحياة يرى أن وراء هذا المستوى دنيا أخرى غير هذه الدنيا التى يتقلب فيها الناس ، وأن الذى يبـــدو لنا من مادية متحكمة فى موازين الحياة ليس إلا ثوبا مستعارا »(١) .

---

(١) الله ذاتاً وموضوعاً : ١١ — ١ : عبد الكريم الخطيب .

٢ — حدوث العالم

أما حدوث العالم وقدمه : فهى قضية من أبرز القضايا الفلسفية والكلامية ، وقد حظيت باهتمام العلماء منذ أن كانت موضوعاً للبحث ، ولا تزال حتى اليوم . وللفلاسفة والمتكلمين فيها خلاف مشهور .

يقول فيلسوف قرطبة (أبو الوليد بن رشد) فى كتابه « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » : إنه ليس فى الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا نصاًفيه أبداً .

إن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة فى الإنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين . أعنى غير منقطع .. وذلك أن قوله تعالى : (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء يقتضى بظاهره أن وجوداً قبل هذا الوجود : وهو العرش والماء ، وزماناً قبل هذا الزمان . أعنى المقترن بصورة هذا الوجود الذى هو عدد حركة الفلك .

وقوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) يقتضى أيضا بظاهره أن وجوداً ثانيا بعد هذا الوجود .

وقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) يقتضى بظاهره أن السماوات خلقت من شيء »[1] .

ويفصل ابن رشد بين موجودات ثلاثة :

١ — موجود : وجد من شيء (أى من مادة وعن سبب فاعل) والزمان متقدم عليه . وهذه هى جميع الموجودات من الأجسام التى تدرك بالحس .

---

(١) فصل المقال : ٤٢ ، ٤٣

٢ — وموجود: لم يكن من شيء، ولا عن شيء، ولا تقدمه زمان. وهو (الله) تعالى. والأول: محدث باتفاق. والثانى: قديم باتفاق.

٣ — وموجود: عن شيء، ولكنه لم يكن من شيء، ولا تقدمه زمان. وهذا هو العالم بأسره[1].

وهذا الأخير هو محل الخلاف بين الفلاسفة والمتكلمين. والخلاف فى أولية وجوده.

ويرى أبو الوليد: أن هــــذا النوع من الوجود ليس محدثا حدوثا حقيقياً، ولا قديما قدماً حقيقيا. فإن المحدث الحقيق فاسد بالضرورة، والقديم الحقيق ليس له علة[2].

ونحن معه على هذا التقسيم. ولكننا لا نسلم له أن هذا النوع ليس بمحدث على الحقيقة وعدم الفساد إلى المستقبل — على فرض تسليمه — لا يدل على القدم فى الماضى. ولكن القدم فى الماضى هو الذى يدل على عدم الفساد فى المستقبل. والذى معنا ليس كذلك.

وهذا الذى ذهب إليه «أبو الوليد» متابعاً فيه رأى أرسطو ومن تبعه من فلاسفة الإسلام «كأبى نصر، وابن سينا» هو ما يستلزمه مذهبهم فى القول «بواجب الوجود» فإن من لوازم إطلاق واجب الوجود على

---

(١) أنظر المقال: ٤٠، ٤١، يعنى أصوله التى هى: العقول والنفوس والأجسام الفلكية وصورها الجسمية والنوعية، والمادة، والعنصريات وهى المواليد الثلاثة: الحيوان، والنبات، والمعدن وأصول تلك العنصريات وهى العناصر الأربعة: الماء، والتراب، والهواء، والنار، والزمان. هذه الأشياء كلها قديمة فى نظر الفلاسفة.

(٢) أنظر المقال: ٤٢

الله تعالى عند الفلاسفة أن يكون العالم(١) مصاحباً له فى الوجود . ضرورة لزوم المعلول لعلته التامة ، وعدم انفكاكه عنها .

ولما كان الممكن محتاجا إلى الواجب . فهو مسبوق به حتما ، والعلة متقدمة — ضرورة — على المعلول ، إذ لاتعقل العلة إلا على أنها علة لمعلول ولا يعقل وجود المعلول إلا إذا تقدمته علة .

وقد يتصور القارىء لهذا القول أن فيه شيئا من التناقض ، فكيف يكون وجود المعلول مع علته ضرورة ملازمته لها . ثم يكون متأخراً عنها ضرورة تأخر المعلول عن علته إذ لا يعقل وجود المعلول إلا إذا تقدمته علته ؟ !

ولكن الفلاسفة يرون أن هذا التقدم ليس تقدماً زمانيا — كما يمكن أن يفهم — ولكنه تقدم ذاتى . لأن المعلول يجب أن يكون مصاحباً لعلته فى الزمان(٢) .

فلكل ممكن علة هى أقدم منه ؛ لأن كل علة هى أقدم فى وجود الذات من المعلول وإن لم يكن فى الزمان ، كتقدم حركة الإصبع على الخاتم ، وكتقدم حركة اليد على حركة المفتاح ، وهذا مثل ما تقول : حركت يدى فتحرك المفتاح أو ثم تحرك المفتاح ، ولا تقول : تحرك المفتاح فتحركت يدى ، أو ثم تحركت يدى . وإن كانا معاً فى الزمان . فهذه بعدية بالذات(٣) .

---

(١) أعنى بعضه وهو الصادر عن الواجب صدوراً أولياً من غير واسطة

(٢) وهم يقسمون التقدم والتأخر تقسيما غير حاصر إلى خمسة أنواع : بالذات ، والوضع ، والطبع ، والشرف ، والزمان .

(٣) الإشارات والتنبيهات : ٣/١٠٥ تحقيق دنيا

«وأيضا فإن ما يجب بغيره فوجوده بالذات متأخر عن وجود ذلك الغير ومتوقف عليه»(١).

وعلى ذلك فرأى الفلسفة الإسلامية كما يمثلها ابن سينا والفارابي وابن رشد - متابعين رأى معلمهم الأول - هو القول بقدم العالم قدماً زمانيا، وإن كان حادثا حدوثا ذاتيا.

وهذا هو معنى قول «أبي الوليد»: «إنه ليس محدثا حدوثا حقيقيا، ولا قديما قدما حقيقيا».

يقول الإمام حجة الإسلام «الغزالى»:

«والذى استقر عليه رأى جماهيرهم المتقدمين والمتأخرين: القول بقدمه - أى العالم - وأنه لم يزل موجوداً مع الله تعالى، ومعلولا له، ومساوقا له غير متأخر عنه بالزمان مساوقة المعلول للعلة، ومساوقة النور للشمس، وأن تقدم البارى عليه كتقدم العلة على المعلول. وهو تقدم بالذات والرتبة لا بالزمان»(٢).

ولم يشذ عن هذا الرأى من المتقدمين والمتأخرين إلا القليل(٣).

وعلى ذلك فالقديم عندهم له معنيان: قديم بالذات، وقديم بالغير.

والقديم بذاته هو واجب الوجود. وهو الله سبحانه، الذى تقتضى ذاته الوجود والكمال المطلق فلا يحتاج إلى غيره لا فى وجوده، ولا فى كماله.

---

(١) النجاة: ٢٢٧ عن الجانب الإلهى: ٤٧٢ د/ البهى

(٢) تهافت الفلاسفة: ٨٨ تحقيق دنيا

(٣) كالمشهور من مذهب أفلاطون، والكندى من فلاسفة الإسلام، وقد توقف «جالينوس» من القدامى لايدرى إن كان العالم قديما أو محدثا

أما القديم لغيره : فهو الممكن الذى لم يسبق بعدمه ، وإن كان مسبوقا بغيره وهو الواجب سبقا ذاتياً ، لا زمانياً كما تقدم .

وهذا الممكن قد صدر عن الأول بطريق التعليل ، والمعلول مرتبط بعلته التامة ، وأعنى بالعلة التامة : ما كانت مستجمعة لكل شروط التأثير فى الأثر .

وما دامت العلة تامة فلا يمكن أن يتأخر المعلول عنها زمانا ، وعلى ذلك فهو قديم قدم العلة .

ولقد كان ابن سينا كأستاذه (أرسطو) غير جازم بالقدم . فأرسطو يرى أن العلة الفاعلية يجب أن تسبق فى الزمن معلولها . فيقول :

«والعلل الفاعلية وجود سابق على معلولاتها ، أما العلل الصورية فهى مقارنة فى الزمان لمعلولاتها»(١) .

ويقول الأستاذ يوسف كرم : «إن أرسطو يعترف فى كتابه (الجدل) بأن مسألة قدم العالم من الأمور الجدلية التى تحتمل أكثر من قول واحد»(٢) .

ولهذا رأينا ابن سينا متأرجحاً : يجزم مرة بالقدم ويدافع عنه لأن واجب الوجود بذاته واجب الوجود فى جميع صفاته وأحواله فلا يعرض له تغير الأحوال وتبدل الشئون ، ومرة يتحدث بلغة غير لغة الجزم فيقول : «وإن لم يمتنع أن يكونا معاً فى الزمان»(٣) .

---

(١) ابن سينا بين الدين والفلسفة : ١٠٢ نقلا عن مقالة اللام لأرسطو د/ حموده غرابة

(٢) ما بعد الطبيعة : ١٨٩

(٣) الاشارات : ٣ / ٨٤

يقول الدكتور : البهى « ويبدو أن ابن سينا — فى مصاحبة العالم فى الوقوع لواجب الوجود — فى توفيقه بين الدين والفلسفة قد يكتفى بتجويز العقل لقدم العالم قدما زمانيا دون حاجة إلى التشدد فى أن يذهب أبعد من ذلك إلى ما تتطلبه فكرة الواجب من لزوم قدمه فى الزمان لزوما عقليا (١).

ولقد قال المتكلمون بالحدوث . ولكن أدلتهم على الحدوث لم تسلم من النقد ، ولم أر فيما قرأته فى الموضوع دليلا واحداً قد سلم من إيراد أو إبطال أو اعتراض .

يقول الدكتور/حموده غرابة : والقول بامتناع حوادث متعاقبة فى جانب الماضى لا إلى نهاية والذى يتوقف عليه دليل المتكلمين مازال إلى اليوم بحاجة إلى دليل صحيح (٢).

ويرى الأستاذ الإمام : أن برهان التطبيق عبارة عن سفسطة ، وأن برهان التضايف لا صحة له على أى وجه تحرر (٣) .

ولقد أفاض (الدوانى) فى إثبات حدوث العالم وأطال ، ثم اعتذر عن الإطالة بقوله :

وإنما أشبعنا الكلام فى هذا المقام لأنه أصل من أصول العقائد الدينية ، وقد كثر فيه تعارك الآراء ، وتصادم الأهواء ، ولم يأت جمهور المتكلمين فى هذا المبحث بشىء يتعلق بقلب الأذكياء بل اجتهدوا فى إيراد المنوع البعيدة التى يأباها الطبع المستقيم أشد الإباء فبقيت نفوس الناظرين فيها مائلة إلى مذهب الحكماء ، بل الأئمة التى أوردوها شأنهم ذلك بلا امتراء ».

---

(١) الجانب الإلهى : ٤٧١

(٢) الأشعرى : ١٤٢ - د. حموده غرابة

(٣) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : ١ - ٣٦ تحقيق دنيا

وقد علق الأستاذ الإمام عليه . بأنه قد شنع عليهم فى رسالة الزوراء ما هو أكثر من هذا إلا أنه لم يخالفهم إلى العلم الإجمالى بل خالفهم إلى سفسطة(١) .

والحقيقة أن إثبات حدوث العالم لا يحتاج منا إلى جهد كبير إذا كنا نؤمن بنظرية الخلق وأختيار الواجب كما أفاضت بهما النصوص القرآنية من مثل قوله تعالى : (وربك يخلق ما يشاء ويختار)(٢) (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء)(٣) . (قال كذلك الله يخلق ما يشاء)(٤) . (إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)(٥) .

ولسنا نعنى بالاختيار ماذهب إليه الفلاسفة من أن هذا العالم قد صدر عن الواجب برضاه .

ولكن المختار : من إذا شاء فعل ، وإذا لم يشأ لم يفعل . (والله قادر مختار) . وعلى ذلك نقول :

العالم — وهو كل ما سوى الله تعالى — ممكن — .

وكل ممكن حادث — فالعالم حادث .

يقول الأستاذ الإمام(٦) : من أحكام الممكن أنه إن وجد يكون حادثا ، لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب .

---

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : ١٧٠/١ تحقيق دنيا .
(٢) القصص : ٦٨ .
(٣) الشورى : ٤٩ .
(٤) آل عمران : ٤٧ .
(٥) يس : ٨٢ .
(٦) أنظر رسالة التوحيد نقلا عن غلاب : المعرفة عند مفكرى المسلمين : ٦٩ .

فقد ثبت أن وجود الممكن من غيره فحال إيجاده لا يكون موجودا لاستحالة إيجاد الموجود لأنه تحصيل للحاصل .

فيكون معدوما ضرورة . فوجود الممكن إذن مسبوق بعدمه . وهو معنى الحدوث .

وإذا كان العدم لايحتاج إلى زمان على رأى الفلاسفة . فهو زعم باطل ، لأن الحادث بهذا المعنى لايحتاج إلى القادر المختار . وإنما هو أثر للعلة الموجبة التى لا ينفك أثرها عنها .

يقول الدكتور غلاب : ويمكن أن يعترض على مبدأ الأزلية بأنه يتعارض مع مبدأ الخلق(١) » .

وهو كذلك ، لأن إرادة الواجب إنما تتوجه إلى المعدوم لإيجاده ، والقصد أو الإرادة إنما تكون فى الآن الثانى دون الأول . فالعلة إنما تقصد إلى معلولها وتفيد وجوده بعد أن تحوز وجود ذاتها ليتحقق منها للمعلول إفادة الوجود . أما إذا كان معها فى الوجود فلا تتحقق إفادة ولا استفاده .

يقول الإمام الشيخ محمد عبده : وعلى فرض القول بالعلة ، فالعلة إنما تفيد وجود المعلول بعد أن تحوز وجود ذاتها وكون المعلول معها فى آن واحد يستلزم أن تكون العلة والمعلول كل منهما قد حاز وجوده مع الآخر فلاتتحقق الإفادة والاستفادة(٢) » .

ويقول الأستاذ العقاد : والحق أن كل ماقيل عن القدم خلف ليس له طائل(٣) .

---

(١) مشكلة الألوهية : ٨٧ .

(٢) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : ١٧٨-٩ .

(٣) الفلسفة القرآنية : ٩٣ .

ولعل القول بالقدم هو الذى منع أرسطو من القول بنظرية الخلق لأنه لايتفق مع القول بالقدم .

أما أن يقول فلاسفة الإسلام بهما معا فهو قول لاتسيغه العقول .

ولو أن الفلاسفة اكتفوا بالقول بقدم العالم فقط لهان الخطب، ولكنهم مع ذلك يسلبون البارى سبحانه إرادته واختياره . لأن ذلك يؤدى — فى زعمهم — إلى نقصان الواجب تعالى . فيكون ناقصا بذاته مستكملا بغيره وهو محال .

ولست أدرى أى ذلك هو النقصان ؟

أن يكون البارى سبحانه ذا إرادة وإختيار يفعل ما يشاء ويختار — أو أن تكون لنا الخيرة دونه — فيكون إلها جامداً مسلوب الاختيار والإرادة ؟!!

إن إرادة الواجب واختياره — على غير ما ذهب إليه الفلاسفة — لايمكن أن يؤدى إلى استكمال الواجب بغيره بل فيه استكمال الغير وكمال الواجب ، وفيه استكمال الفعل وكمال الفاعل .

وعلى أساس نظرية الخلق ، وكمال الواجب لأنه فاعل مختار يتم لنا الدليل على « أن كل ممكن حادث » .

وليست بنا حاجة إلى ما ذهب إلى المتكلمون من إثبات حدوث العالم عن طريق حدوث الأعراض والأجرام .

وهذا الدليل فى نظرنا من أقوى الأدلة على حدوث العالم ، وهو دليل عام يجرى فى الزمان والمكان والحركة والمادة ، والمجردات جميعا . فليس دون الواجب إلا الممكن .

ومن ثم فالعالم حادث غير قـديم ، وهو حادث بالشخص ، وحادث بالنوع جميعا .

وما يتذرع به الفلاسفة من استحالة صدور حادث من قديم . وإلا لزم تخلف المعلول عن علته التامة . كما أن الله متقدم على العالم : فإن كان بالذات فهما قديمان ، وإن كان بالزمان والزمان منه لزم تقدم الزمان على نفسه بالوجود .

فنقول لهم : إن العلة التامة إنما تتم بإرادة الواجب خلق العالم فى الوقت الذى أراده فيه . والزمان من جملة العالم وتقدم البارى عليه لا بزمان ووقت لأن الزمان منعدم فيما بين الله والعالم فلا يلزم تقدم الزمان على نفسه .

ويمكن أن نرجع بمسألة الحدوث إلى نصوص الوحى نستق منها الدليل . والقرآن الكريم والسنة المطهرة فيهما الأدلة المتوافرة على الحدوث. وليس بصحيح مازعمه ابن رشد من أنه ليس فى الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ولا يوجد هـذا فيه نصا أبداً .. وأن الوجود والزمان مستمر من الطرفين غير منقطع .

وإلا فماذا تفيده الآيات الدالة على قـدم البارى سبحانه وحدوث ما عداه كقوله سبحانه (هو الأول والآخر(١)) أى الأول قبل كل شيء بغير بداية ، والآخر بعد كل شيء بغير نهاية .

وقوله سبحانه (لله الأمر من قبل ومن بعد)(٢) أى من قبل الخلق ومن بعد الموت .

وإذا كان الله قديما : وهو محل اتفاق بين جميع العقلاء ، وهو الخالق

---

(١) الحديد : ٣ .   (٢) الروم : ٤ .

لكل شيء كما قال سبحانه (وخلق كل شيء فقدره تقديرا)(١) (إنا كل شيء خلقناه بقدر)(٢) (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل)(٣) (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه)(٤) . فإن لهذا الخلق بداية كما قال سبحانه : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده)(٥) (الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون)(٦) (أو لم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده)(٧) (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض)(٨) (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون)(٩) .

ويقول الرسول ﷺ « ليس نفس مخلوقة إلا الله خالقها »(١٠) .

وإذا كان الله قديما والعالم له بداية فقد كان الله ولاشيء غيره ، أو ولا شيء معه كما جاء بذلك الحديث الشريف .

وأما ماورد من رواية التوحيد « كان الله ولم يكن شيء قبله » فقد علق عليها الإمام ابن حجر بأن رواية الباب « كان الله ولم يكن شيء غيره » تؤيدها رواية غير البخارى « كان الله ولم يكن شيء معه » وفى رواية أبى معاوية « كان الله قبل كل شيء » والقصة متحدة فاقتضى ذلك أن تكون رواية « التوحيد » قد وقعت بالمعنى.. وفيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره لا الماء ، ولا العرش ، ولا غيرهما(١١) .

---

(١) الفرقان : ٢ .
(٢) القمر : ٤٩ .
(٣) الزمر : ٦٢ .
(٤) الأنعام : ١٠٢ .
(٥) الروم : ٢٧ .
(٦) الروم : ١١ .
(٧) العنكبوت : ١٩ .
(٨) النمل : ٦٤ .
(٩) يونس : ٣٤ .
(١٠) انظر فتح البارى ٣٩١/١٣
(١١) فتح البارى ٢٨٩/٦ ، ٤١٠/١٣

وقد اتفقت الرسل جميعاً ، وتواترت نصوص الكتب المنزلة عليهم على هذا المعنى ، ولا يتوقف صحة الوحى عليه . لأنه من الممكن إثبات وجود الله عن غير طريق الحدوث كطريق الإمكان أو النظام أو العناية أو غيرها ، ثم يثبت صدق الرسول بالمعجزة ، ومن الرسول نعلم حدوث العالم . وهذا هو مذهب بعض المتكلمين(١) .

وماذكره ابن رشد أيضاً كدليل على إمتداد الوجود والزمان فى الأزل والأبد من مثل قوله تعالى . (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء)(٢) . وقوله سبحانه : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وقوله جل ذكره : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات)(٣) . لا يشهد له شىء من ذلك على قدم العالم مطلقا : فخلق السموات والأرض متأخر عن العرش والماء والقلم واللوح وغيره ، فهناك وجود قبل وجودهما هو العرش والماء . لكن أى دليل فى هذه الآية أو فى غيرها يدل على قدم العرش والماء ؟ وهناك زمان مقترن بهذا الوجود لكنه غير قديم . كما أن هذا الوجود كذلك غير قديم ، وقد خلقت السموات والأرض من شىء . لكن ما الدليل على قدم هــذا الشىء (دخان كان أو غيره) ؟

كذلك ليس بصحيح ما يزعمه ابن رشد أيضا من أن الزمان عرض يحصر تصور حدوثه ، لأن الزمان مقدار حركة هذا العالم ، وحيث قد ثبت حدوث العالم ، فقبل العالم لا زمان ، بل هو حادث حدوث العالم لأنه من جملته .

---

(١) أنظر المواقف والتهافت ٩٥ حاشية

(٢) الحديد : ٤ (٣) إبراهيم ٤٨

العلم الحديث :

وبعيداً عن أغلاط الفلاسفة ، والجدل العقيم الذى لا يغنى من الحق شيئاً نستمع إلى الحقائق العلمية وما يقوله العلم الحديث عن هذه المعضلة التى أشكلت على القدماء . وتذرع بها بعض المحدثين من أجل إنكار وجود الله .

لقد أثبت علماء الفلك ، وطبقات الأرض وغيرهم أن العالم حادث وجد بعد أن لم يكن ، ومع أن الإسلام لم يذكر لنا متى وجد . إلا أن العلماء اليوم أصبحوا يحددون لنا عمر هذه الكائنات وزمن هذه المخلوقات تحديداً علمياً دقيقاً .

يقول «جورج جاميو» فى كتابه تاريخ الأرض : إن الكون بدأ تطوره منذ بليون بليون سنة . أما الأرض فقد نشأت حديثا جداً إذ لم توجد إلا منذ بليونين من السنين فقط ، وظهرت الحياة على الأرض منذ بليون سنة ، والحيوانات البرمائية منذ ٢٠٠ مليون سنة ، أما الحيوانات الثديية التى يعتبر الإنسان أحد فروعها فقد بدأ ظهورها على الأرض منذ ١٢٠ مليون سنة ، والإنسان هو أحدث الوافدين على الأرض إذ بدأ على صورته الإنسانية منذ ٥٠ مليون سنة»(١) .

وتجاوزا لهذا التحديد . فهناك قانون « الطاقة المتاحة الذى اكتشفه (كارنو) واستنتج منه (لمكوزيوس) و(لورد كيلفن) : أن تطور العالم يتم باتجاه واحد وليس له سوى نهاية ممكنة (الموت الحرارى) .

وهذا القانون يثبت أن الحرارة تنتقل دائما من « وجود حرارى » إلى «عدم حرارى» والعكس غير ممكن .

---

(١) أنظر العقائد الإسلامية ٥٥

وبناء عليه فإن عدم كفاءة عمل الكون يزداد يوماً بعد يوم ولابد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات . وعندئذ تنفد الطاقة المفيدة للحياة والأحياء وتنتهى الحياة .

وبما أن الحياة لاتزال قائمة ، والطاقة موجودة فهذا يعنى أن الكون قد بدأ منذ وقت لا يسمح بنفاد هذه الطاقة الموجودة فيه وهذا يعنى حدوثه ، إذ لو كان قديما لنفدت هذه الطاقة من زمن طويل »(١) .

ويقول الدكتور : «أدوارد لوثر كسيل» :

فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزليا(٢).

ويقول الدكتور : « بيتر واستوفر » .

كنت أعتقد أن المادة أزلية أبدية ، وإن كنا نستطيع أن نغير شكل المادة . إلا أن الحالة الثانية أيضا مادة ، وهكذا كانت عقيدة الكثير من العلماء . فما إن ا كتشفت الطاقة الذرية حتى تبين أن المادة يمكن أن تبدل إلى طاقة ، والطاقة إلى مادة . لذلك أصبحت فرضية الخلقة وحدوث العالم من الضروريات الواضحة العلمية »(٣) لأن التحول لا يجوز على الأزلى .

ويقول الدكتور : « إرفنج وليام نوبلوتشى » :

فعلم الفلك مثلا يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة ، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد أن هذا الكون أزلى له

---

(١) أنظر الإسلام يتحدى .. لوحيد الدين خان

(٢) الله يتجلى فى عصر العلم ٢٦ جون كلوفر

(٣) راجع محاضرات فى العقيدة ٢٠٢ أحمد البهادلى

بداية ، أو أبدى ليس له نهاية فهو قائم على أساس التغير »(١) . وهكذا يثبت العلم الحديث حدوث العالم وعدم أزلية المادة كما يزعم ابن رشد وغيره من الفلاسفة .

٣ — أول المخلوقات :

تبين لنا مما سبق أن العالم — وهو كل ما سوى الله — حادث مسبوق بعدمه ، وأن الله وحده هو الأزلى لا أول لوجوده . وهذا المعنى هو ما يدل عليه صراحة قول النبي ﷺ : « كان الله ، ولم يكن شيء غيره » ، وكان هنا لا بمعنى المضى فقط . ولكنها تفيد معنى الدوام والاستمرار كذلك .

وإذا كان العالم حادثا : وجد بعد أن لم يكن . فما هو أول هذه الموجودات من الحادثات ؟ إلى ذلك يشير الحديث الشريف بقوله ﷺ : « وكان عرشه على الماء » والذى ينساق إليه الفهم فى هذه العبارة : أن العالم ينقسم إلى قسمين : علوى وسفلى . وأن أول المخلوقات السفلية هو : (الماء) . وأن أول المخلوقات العلوية هو : (العرش) وذلك بمقتضى قوله « وكان عرشه على الماء » . فإن معناه أن أول المخلوقات : (عرش على ماء) . وليس يعنى هذا أن العرش ملاصق للماء محمول عليه . وإنما يعنى أن العرش فى جهة العلو ، وأن الماء تحته فى جهة السفل .

وذلك مثل قولنا : « السماء على الأرض » أى فوقها دون مماسة أو ملاصقة لها .

ولكن : إذا كان الماء والعرش مخلوقين . فلماذا عبر الحديث عنهما بلفظ (كان) ولم يقل (خلق) فقال : « وكان عرشه على الماء » كما قال « كان

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ٥٣

الله ولم يكن شيء غيره » . ثم عبر مع السماوات والأرض بلفظ (خلق) فقال : « وخلق السماوات والأرض » . فلو كان العرش والماء مخلوقين لعبر عنهما بلفظ (خلق) فقال « وخلق عرشه على الماء » كما قال « وخلق السماوات والأرض » .

وأقول : لعل ذلك مما يشهد لنا على أن الماء والعرش هما أول المخلوقات لأنه لو عبر بلفظ (خلق) بدل (كان) مع العرش والماء ربما اختلط الأمر على الناس فلا يدرون أيهما خلق أولا « العرش والماء » أو « السماوات والأرض » لأن العطف بالواو لا يقتضي ترتيبا ولا تعقيبا .

ثم إن التعبير بلفظ (كان) مع الله . وبلفظ (كان) أيضا مع العرش والماء لا يقتضي قدم العرش والماء . وأنهما غير مخلوقين . لأن ذلك منفي بقوله « ولم يكن شيء غيره » فنفت المعية .

وعلى ذلك فهناك مقابلة بين (كان) الأولى في قوله « كان الله ولم يكن شيء غيره » و(كان) الثانية في قوله : « وكان عرشه على الماء »(١) فهي في الأول بمعنى الدوام في الأزل والأبد . وفي الثاني بمعنى الحدوث في جانب الماضي . واستعمالها في المعنيين مشهور . وهذا ظاهر . إذ لا يتصور من كان عنده مسكة من عقل أن (كان) الثانية مثل (كان) الأولى في الأزلية : لما في ذلك من التناقض الظاهر في نص الحديث ؛ لأنه قد نفى صراحة أن يكون مع الله شيء ما بقوله « ولم يكن شيء غيره » فلا يعقل بعد ذلك أن يقال : وكان معه في الأزل العرش والماء .

---

(١) قال الطيبي : هو فصل مستقل . لأن القديم من لم يسبقه شيء ولم يعارضه في الأولية . لكن أشار بقوله (وكان عرشه على الماء » إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خلقا قبل السماوات والأرض — فتح الباري ٢٨٩/٦

ولكن إذا كان العرش والماء هما أول المخلوقات ، فأيهما خلق أولا : العرش أو الماء ؟ .

أقول : إنه لا نص فى الحديث على ذلك .

وإنما قد يؤخذ من ظاهر الحديث أن الماء خلق أولا كما يفيده ظاهر اللفظ فى قوله : « وكان عرشه على الماء » .

وقد ورد ذلك نصاً فى أحاديث أخرى بأسانيد مختلفة منها ماورد عند أحمد والترمذى بسند صحيح مرفوع : على أن الماء خلق أولا(١) .

وعلى هذا يمكننا القول : بأن أول المخلوقات المادية على الإطلاق هو (الماء) .

وأن العرش هو أول المخلوقات المادية العلوية ، خلق بعد الماء .

أما أن العرش هو فلك الأفلاك كما يقول الحكماء فليس لدينا ما يؤكد ذلك أو ينفيه .

وأما كون (الماء) هو أصل الموجودات كلها كما قال «طاليس الملطى» وغيره من الفلاسفة فلم نجد عليه دليلا صحيحاً صريحاً فى الإسلام اللهم إلا ما تفرد به أحمد من حديث يزيد عن همام عن قتادة عن أبى ميمونة عن أبى هريرة قال : قلت يارسول الله إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى فأنبئنى عن كل شىء . قال : «كل شىء خلق من ماء» ، قال ابن كثير : وهذا إسناد على الصحيحين ، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن واسمه سليم ، والترمذى يصحح له ، وقد رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة مرسلا(٢) .

(١) أنظر العقائد الإسلامية : ٥٤ الشيخ سيد سابق .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ : ١٧٧ .

وأما قوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي)[١] ، وقوله :(والله خلق كل دابة من ماء)[٢] فلا يفيد أنه أصل كل المخلوقات بل الأحياء منها فقط .

وقد نقل صاحب « الملل والنحل » ونقله عنه صاحب « المواقف» عن « طاليس الملطي » أن أول المخلوقات هو « الماء » ومنه خلق كل شيء : من السماء والأرض وما بينهما .

يقول « الشهرستاني » وفي التوراة في السفر الأول منها أن مبدأ الخلق هو جوهر خلقة الله تعالى ثم نظر إليه نظرة الهيبة فذابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ثار من الماء بخار مثل الدخان فخلق منه السماوات وظهر على وجه الما زبد مثل زبد البحر فخلق منه الأرض ، ثم أرساها بالجبال ، ثم يقول الشهر ستاني وكان طاليس الملطي إنما تلق مذهبه من هذه المشكاة النبوية[٣] .

ولكننا لم نعثر على هذا النص في سفر التكوين في التوراة التي بين أيدينا ، ولا ندري ما إذا كان ذلك في التوراة القديمة قبل أن تحرق ؟ ومن ثم لا يمكن لنا التعويل عليه .

نعم قد ورد ذلك عن كعب الأحبار كما نقله الرازي ولكنه مما لا يعتد به في حكم الإسلام .

وعلى ذلك فالذي نفيده هنا : هو أن أول المخلوقات المادية هو « الماء» كما أن أول المخلوقات العلوية هو «العرش» وقد خلق بعد الماء، وقد روى

---

(١) الأنبياء ٣٠ (٢) النور ٤٥

(٣) الملل والنحل : ٢:٦٨ تحقيق د/بدران .

« السدى » فى تفسيره بأسانيد متعددة « أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء »(١) .

وأما ماورد مما يوهم ظاهره معارضة هذا الحديث الذى معنا فمنه ماورد فى الحديث الصحيح عند أحمد والترمذى عن عبادة بن الصامت أن النبى ﷺ قال : « أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له اكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » ومنه ماورد من أن أول المخلوقات هو « العقل » .

ومنه ما ورد فى المواهب اللدنية من أن أول المخلوقات هو « نور نبينا ﷺ » « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » الحديث المشهور .

وهذه الأحاديث منها ما لم يثبت صحته كحديث « العقل » وحديث « أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » ومنها ما ثبت صحته كحديث أحمد والترمذى : « أول ما خلق الله القلم » .

وعلى فرض صحة ما لم يثبت صحته من هذه الأحاديث ، فلا يفيد شىء منها التعارض مع هذا الحديث الذى معنا بل يحمل كل منها على أنه « أول » فى بابه : فالماء أول الموجودات المادية السفلية ، والعرش وإن كان بعد الماء بنص الحديث الصحيح — كما سبق — هو أول الأجرام العلوية ، والقلم والعقل هو أول المخلوقات المعنوية(٢) ، والنور هو أول الأنوار النبوية ، وهكذا يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بعد ذلك : « وكتب فى الذكر كل شىء » و « الذكر » قد ورد تفسيره « باللوح المحفوظ »

---

(١) فتح البارى : ٦:٢٨٩

(٢) ووقع فى قصة نافع بلفظ : كان عرشه على الماء ، ثم خلق القلم فقال اكتب ما هو كائن ، ثم خلق السماوات والأرض وما فيهن ، فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش ، فتح البارى : ٦:٢٨٩

وهو جسم عظيم خلقه الله تعالى ليسجل فيه كل شيء حتى يطلع عليه من شاء من ملئه الأعلى وملائكته المكرمين ، وهذا المعنى هو ما يؤيده ظاهر النصوص الصحيحة الواردة في صفته ومعناه .

ويرى البعض أنه عبارة عن علم الله المحيط الذي يتعلق بسائر الموجودات : كلها وجزئيها صغيرها وكبيرها ، ما كان منها وما يكون .

والبعض يرى أنه ما يلوح للملائكة ليعلموه ، ويفهموا عنه .

وأرى أنه لا ملجيء لنا إلى تأويل ظاهر النصوص والخروج بها عن معناها الحقيقي إلى المعنى المجازي مادام ذلك لا يصدم أصلا من أصول الإسلام والخروج عن الظاهر بدون ضرورة ملجئة غير جائز .

نعم قد نلجأ إلى تأويل معنى « القلم » بأنه قوة معنوية مجردة عن المادة هذا إذا كان الكاتب هو الله تعالى مباشرة « بمقتضى قوله ﷺ « وكتب في الذكر كل شيء » والكتابة بالقلم كما ورد في حديث أحمد (لأن الله ليس كمثله شيء) وإن كان الكاتب هو القلم المباشر للكتابة ، والله هو الكاتب بمعنى الآمر له بأن يكتب فلا مانع من إرادة المعنى الحقيقي للقلم ، دون الخروج إلى المجاز .

وظاهر من معنى الحديث : أن اللوح والقلم مخلوقان بعد الماء والعرش .

وأرى أنه لا معنى لإنكار المجردات على أنها مخلوقة لا خالقة كما يقول بعض فلاسفة الإسلام كابن سينا والفرابي ومن تبعهما ممن يقولون بنظرية الصدور .

• • •

بعد ذلك يقول الرسول ﷺ :

« وخلق السموات والأرض » .

ويعني ذلك أن خلق السموات والأرض إنما جاء متأخراً عن خلق الماء والعرش والقلم ، وإن كان العطف بالواو لا يفيد هذا الترتيب إلا أنه قد وقع في قصة نافع بن زيد : « وكان عرشه على الماء ثم خلق القلم فقال: اكتب ما هو كائن ، ثم خلق السموات والأرض وما فيهن » فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش ، وفي رواية التوحيد : « ثم خلق السموات والأرض » ، ويؤيد رواية نافع ما ورد عند مسلم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض . . وكان عرشه على الماء »(١) .

ولكن أيهما أسبق خلقاً : السماء أو الأرض ؟ .

الرواية التي معنا لم تذكر لنا شيئاً من ذلك ، ولكن من الممكن لنا أن نجد ذلك واضحاً في قوله تعالى: «قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم »(٢) .

فقد ذكرت الآية أن خلق الأرض كان أولاً ، كما قال سبحانه (هو

---

(١) راجع فتح الباري : ٢٨٩/٦ ، ٤٠٣/١٣ وما بعدها .

(٢) فصلت : ٩ — ١٢

الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات)(١) .

أما قوله تعالى : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها) فتعني أن دحو الأرض لا خلقها هو الذي كان بعد خلق السماء .

والدحو قد فسره قوله تعالى بعد ذلك (أخرج منها ماءها ومرعاها) ، هكذا فسرها ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه(٢) .

والذي يلفت النظر في هذه الآية (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) أن السماء قد خلقت من مادة — كما قال ابن رشد ، ولكن ذلك لا يعني أن هذه المادة قديمة ، وليس له من دليل على ذلك — فما هي هذه المادة ، أو ما هو هذا الدخان ؟ وهـــل هو أصل السماء فقط ، أو أصل السماء والأرض ؟ .

يجيب العلم الحديث — حيث لم ترد النصوص القرآنية والنبوية ما يبين لنا حقيقة هذا الدخان — « أن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأول في العلم الحديث وبين الدخان . . للدلالة على الحالة الغازية الغالبة للمادة التي تكون منها الكون في هذه المرحلة الأولى » . . « فالكون قد تشكل من كتلة غازية تتكون رئيسياً من غاز الهيدروجين ، وثانوياً من غاز الهليوم بطيء الدورة ، وقد انقسم هذا السديم بعد ذلك إلى أجزاء متعددة ذات أبعاد وكتل (عظيمة) » « إن عملية تشكل الكون الأساسية من تكاثف (هـــذا) السديم ثم من انفصاله إلى أجزاء كونت في الأصل

(١ ، ٢) راجع تفسير ابن كثير : ٩٢/٤ ، ٩٣

كتلا مجرتية بدورها تجزأت هـــذه الأخيرة إلى نجوم (ومنها كانت الكواكب) . . (ومن البواقي كانت المادة المنتشرة بين النجوم»(١)، والأرض داخلة ضمن هذه المجرات التي كونتها هذه الكتل الغازية .

وهذا هو ما يفسره أو يفسر به قول الحق سبحانه : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون)(٢) .

وكانتا رتقا أي كان الجميع متصلا بعضه ببعض، متلاصقاً متراكما بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ففتق هذه من هـــذه فجعل السموات سبعاً ، والأرض سبعاً ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض»(٣) .

وعلى ذلك فالمادة الأولى (السديم أو الدخان على حسب تعبير العلم أو القرآن) قد خلقها الحق سبحانه وعنها خلق السماوات والأرض (ومابينهن) ومابينهن هذا كما يقول العلم الحديث هو المادة المنتشرة بين النجوم «توصف على أنها سدم مظلمة، أو مادة كونية منتشرة تتميز بأنها شديدة الخفاء، وهي كتل عظيمة تفوق بمجموع كتـــل المجرات ، وهي التي تعوق المقاييس الفوتومترية عند علماء الفلك»(٤) .

ثم كان من الماء كل شيء حي كما صرحت بذلك الآية الكريمة، وتعني الآية أن الماء مصدر كل شيء حي كمادة جوهرية له.

يقول «بوكاي» . وهذا مما يتفق تماماً مع العلم: فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائي وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية»(٥).

---

(١) راجع: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ١٦٨-١٧٢ موريس بوكاي
(٢) الأنبياء ٣٠   (٣) راجع تفسير ابن كثير ٣/١٧٦ ، ١٧٧
(٤) راجع : بوكاي ١٧٠   (٥) راجع : بوكاي : ٢١٢ ، ٢١٣

يقول ابن حجر بعد ذلك معلقاً على الحديث : وفيه جواز السؤال عن مبدأ الأشياء ، والبحث عن ذلك ، وجواز جواب العالم بما يستحضره من ذلك ، وعليه الكف إن خشى على السائل ما يدخل على معتقده . وفيه أن جنس الزمان ونوعه حادث ، وأن الله أوجد هذه المخلوقات بعد أن لم تكن لا عن عجز عن ذلك بل مع القدرة»(١) .

وفيه كذلك كراهية تعليق آمال المؤمن بعاجل هذه الدنيا الفانية دون الآخرة الباقية . دل على ذلك قول بنى تميم لرسول الله ﷺ وقد قال لهم : اقبلوا البشرى يا بنى تميم » أى اقبلوا ما يقتضى عمله واعتقاده البشرى لكم فى الآخرة كالتفقه فى الدين والعمل به . « قالوا بشرتنا فأعطنا » ذكرت بعض روايات الحديث أنه « تغير وجهه » أو رؤى فى وجهه . أى أغضبه ذلك ، أسفاً عليهم لأنهم آثروا الفانية على الباقية .

وفيه حرص الصحابة على ارتياد مجالس العلم ، وملازمتهم لرسول الله ﷺ ليتعلموا العلم ويتفقهوا فى الدين . وقد كان ذلك أحب إليهم من الدنيا وما فيها ، يشهد لذلك قول عمران وقد جاءه من يخبره بشرود ناقته فقام إليها فإذا هى يقطع دونها السراب(٢) . أى يحول بينه وبين رؤيتها . يقول عمران : فوالله لوددت أنى كنت تركتها . أى ولم أقم قبل أن يكمل الرسول حديثه .

وهكذا : يعلمنا رسول الله ﷺ العقيدة الصحيحة كما علمه الله إياها ليتعرف الناس على حقيقة هذا الإله بعيداً عن جدل المتكلمين وأغلاط الفلاسفة ، وإلحاد الزنادقة ، ﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾(٣) .

---

(١) فتح البارى : ٦/ ٢٩٠

(٢) والسراب : هو ما يرى نهاراً بالصحراء كأنه ماء وهو ليس كذلك

(٣) يونس : ٣٢